هل مات نبوليون مسموما

سجلات مطوية عن ايام نبوليون الاخيرة في جزيرة القديسة هيلانة

نقلاً عن سجلات اسرة هابسبرج

تمهيد

نابليون

كان من آثار سقوط الأسرة النمسوية الحاكمة بعد الحرب العظمى الماضية ان عثرت حكومة النمسا الجديدة (اي الحكومة الجمهورية) على سجلات تاريخية كثيرة كانت تلك الأسرة تحرص عليها أشد الحرص وبعضها يرجع الى ايام نبوليون الاخيرة في جزيرة القديسة هيلانة وهي الأيام التي لا تزال حقيقة ما وقع فيها مجهولة عند المؤرخين. وقد بلغ عدد تلك السجلات نحو المائتين معظمها رسائل بعث بها المندوب النمسوي الذي لزم نبوليون في جزيرة القديسة هيلانة. وهي تدل على صغر نفس الذين قضت الأقدار بأن يتولوا مراقبة نبوليون وحراسته في منفاه. كان يخيل اليهم ان نبوليون يسعى سراً للفرار من الجزيرة والعودة الى اوربا ليستأنف الحرب والكفاح. لذلك كانوا شديدي اليقظة لا تخفى عليهم خافية من امر ذلك الأسير. وفي تلك الرسائل ايضاً ما يدل على خيانة ماري لويز وخيانتها. وماري لويز هذه هي على ما تعلم زوج نبوليون الثانية ووالدة «النسر الصغير». وراجت في اوربا يومئذ اشاعة ازعجت بال الاسر المالكة وخلاصتها ان نبوليون قد ترك وصية اودعها في حرز امين. وفي السجلات التي نحن بصددها اشارة الى تلك الوصية واشارة اخرى الى امر على اعظم ما يكون من الشأن وهو ان نبوليون لم يمت بسرطان المعدة كما هو الشائع بين علماء التاريخ بل مات مسموماً بسم ذي تأثير بطيء

١ — اين وجدت السجلات

وجدت هذه السجلات كما مرَّ القول في قصر شونبرن الذي كان مقرًّا لاسرة هابسبرج النمسوية . ومنذ ذاع خبر العثور عليها حتى طلبت حكومة الجمهورية النمسوية الجديدة الى الدكتور ارلست — وهو اعظم علماء التاريخ في النمسا — ان يفحص تلك السجلات ويستخرج منها تاريخاً مستوفى لايام نبوليون الاخيرة في جزيرة القديسة هيلانة . ومعظم تلك السجلات — كما سبق القول — رسائل بعث بها البرنس مترنيخ — او تلقاها — بشأن نبوليون . وكان مترنيخ هذا اعظم رجال السياسة في ذلك العصر واقوى رجل في النمسا كلها فضلاً عن كونه اعدى اعداء نبوليون الذي اصبح اسمهُ — بعد معركة وترلو — سبة وعاراً

ويرجع تاريخ معظم السجلات التي نحن بصددها الى سنة ١٨١٧ وهي السنة الثالثة من اقامة نبوليون بجزيرة القديسة هيلانة وليس في تاريخه دور يجهله المؤرخون كهذا الدور وقد قال عنه نبوليون في احدى رسائله انهُ الدور الذي يستطيع العالم ان ينظر فيه اليه كما هو لانهُ بدا فيه مجرداً من عظمته وسطوته . ولعل المذكرات الخاصة التي تركها الجنرال جورجو هي اصدق السجلات التي لدينا عن ذلك الدور ومن دواعي الاسف ان جورجو هذا غادر جزيرة القديسة هيلانة — لسبب سنذكره فيما بعد — في شهر مارس سنة ١٨١٨ ولو بقي الى حين وفاة نبوليون في مايو سنة ١٨٢١ لكانت مذكراتهُ عن حياة نبوليون في منفاه اصدق سجل تاريخي . الا ان تلك المذكرات انقطعت فجأة بسبب سفر جورجو وحلت محلها مذكرات اتومارشي الطبيب الكورسيكي الذي وصل الى جزيرة القديسة هيلانة في نوفمبر ١٨١٩ وبقي فيها على الرغم منهُ — وعلى الرغم من نبوليون ايضاً — الى النهاية

ولا بد لنا من القول هنا ان مع جهلنا حقيقة الحوادث التي وقعت لنبوليون في الست السنوات التي قضاها في منفاه فان ما نعلمهُ عن النصف الاول منها هو اكثر مما نعلمهُ عن النصف الثاني . بل ان هذا النصف يكاد يكون صفراً . ولذلك كان للسجلات التي تولى الدكتور ارلست فحصها قيمة خاصة لانها تسد هذا الفراغ من سيرة نبوليون وتبسط لنا — لاول مرة في التاريخ — رسائل المركز دي مونشنو وهو المندوب الوحيد من مندوبي الدول المتحالفة الذين رافقوا نبوليون في منفاه . وبقي في جزيرة القديسة هيلانة الى حين وفاته

٢ — الجزيرة القاحلة

على بعد اربعة آلاف وخمس مائة ميل من سواحل انجلترا وعلى بعد الف وستمائة ميل من مدينة الكاب جزيرة في منتصف الجزء الجنوبي من المحيط الاتلانتيكي هي جزيرة القديسة

هيلانة ذات التموّجات البركانية المتعددة والكهوف المتشققة والصخور الجرداء . وفي اواسط هذه الجزيرة هضبة بركانية عظيمة مكشوفة لهبّ الرياح من جميع الجهات . والجهات المنخفضة منها شديدة الرطوبة حتى قال بعض الناس عنها ان الطحلب ينمو فيها على احذية السائر في الطريق . كانت السفن المسافرة الى الهند او اميركا الجنوبية تعرج عليها لنقل البريد منها او اليها . وفي ايام نبوليون كانت تقطع المسافات بينها وبين اوربا في نحو ستة اشهر بحيث لم يكن المرء فيها يستطيع ان يرسل كتاباً الى صديق له في اوربا ويتلقى جوابهُ قبل مرور اربعة عشر شهراً وقد بعث البارون ستورمر مندوب النمسا في الجزيرة برسالة الى البرنس مترنيخ في ٢ سبتمبر سنة ١٨١٦ جاء فيها ما يأتي :—« ان وصف جزيرة القديسة هيلانة معروف في اوربا وليس لي ما ازيد عليهِ سوى ان الجزيرة هي اردأ مكان في العالم : والدفاع عنها سهل جداً وهي لا تسكن بسبب ما تنشئهُ في النفس من السآمة وما هي عليهِ من فقر واعتلال . على انها اجدر مكان في العالم بالغرض الذي قد اختيرت له (يعني سجن نبوليون) وكل محاولة من الخارج لانقاذ نبوليون مقضي عليها بالفشل . . . .

« وفي الواقع ان الطبيعة قد اقامت حول هذه الجزيرة اعظم العقبات والحكومة الانجليزية لا تني تزيد في وسائل الدفاع عنها : وقد اقامت بها ثلاث « أورط » من المشاة وخمس فصائل من جنود المدافع وفصيلة من فرقة « الدراجون » . وفي ميناء الجزيرة سفينتان حربيتان تحمل كل منهما خمسين مدفعاً وطائفة كبيرة من الجنود . أضف الى ذلك ان في سواحل الجزيرة قلاعاً يبلغ مجموع ما فيها من المدافع اكثر من خمس مائة مدفع تجعل الجزيرة امنع من عقاب الجو . ونبوليون موضوع تحت مراقبة مشددة ونظام المراقبة

[illegible]

الا بجواز من الحاكم . ولا يجوز لاحد في الليل ان يسير في اي جهة الا اذا كان عنده بكلمة السر . ولا يسير الانسان في الجزيرة خطوة الا وحوله الحرّاس والمراقبون

« ويقيم الامبراطور السابق (يقصد نبوليون) بمنزل نائب الحاكم وله ان يجول في قطعة من الارض تبلغ مساحتها عدة اميال وان يتمتع فيها بكامل حريته . ولا يعترضهُ الحرس في ذلك المكان ولا يدنون منهُ الا بعد ان يأوي الى سريره . واذ ذاك يطوّق الحراس منزلهُ حتى الصباح . واذا عنّ لنبوليون ان يجاوز الحدود المباحة لهُ — وهي محصنة بالجنود والمدافع — تبعه الحراس عن بعد يراقبونهُ مراقبة دقيقة

« اما الذين يريدون زيارة الجزيرة مهما تكن الاسباب الدافعة الى ذلك فيجب ان يكون بيدهم جواز مرور خاص لان المراقبة في البحر اشد منها على البر . ومتى اطلق مدفع

الماء فلا يجوز لاي مركب او قارب ان يحاول دخول الميناء او الخروج منهُ . وعلى الساحل جنود يقضون الليل كله في مراقبة كل حركة

« ومن دواعي الأسف ان الطبيعة قد حرمت هذه الجزيرة مورداً مهمًّا من موارد الغذاء وهو السمك . فليس فيها مصايد على الاطلاق ولكن بعض القوارب تقوم بصيد السمك من وقت الى آخر وهو نادر جدًّا في هذه الانحاء

هذا ما كتبهُ البارون شتورمر مندوب النمسا في جزيرة القديسة هيلانة الى البرنس مترنيخ . وكان عمر نبوليون لما وصل الى الجزيرة في سنة ١٨١٥ ستًّا واربعين سنة . وكان قصير القامة نحيف اليدين صغير القدمين ذا عينين تضربان الى الزرقة . وشعر اسحر اللون غير كثيفه . وكانت اسنانهُ ناخرة ومحياه يشف عما يحمله من اعباء الهموم وجسمهُ ينذر بالاسترسال في السمن . وقد كتبت اللادي ملكم زوج امير البحر في مينا الجزيرة تقول انها رأت نبوليون فدهشها مرآه وما كان يشف عنه من الوداعة مع انها كانت تتصوره وحشاً قاسياً . ولم ترَ على وجههِ شيئاً من آيات النبوغ او العبقرية

والغريب انهُ مع شدة نفور العالم كله يومئذ من نبوليون لم يكن احد في الجزيرة يجرؤ على النظر اليهِ نظرة الاحتقار او الشماتة . بل لم يكن احد يجرؤ ان ينظر اليهِ نظرة التحدي . ذلك لان بأس نبوليون وجبروته كانا لا يزالان يلقيان الهيبة في قلب كل من ينظر اليهِ . وكثيراً ما كان حراسه ينظرون اليهِ عن بعد فتأخذهم هيبة لا يدركون منشأها ويطيلون التحديق اليهِ وهو جالس على قمة صخرة لم يسأم الجلوس عليها طول اقامتهِ بمنفاهُ

٣ — منزل لونجوود

كان المنزل المخصص لاقامة الامبراطور المنفي يعرف بمنزل لونجوود . وكان في الاصل زريبة للبهائم وهو قائم على رأس هضبة في وسط الجزيرة تجتاحها الرياح اللافحة من جميع الانحاء فتجعل الاقامة بها عذاباً لا يطاق . وكان المنزل مبنيًّا من الخشب والحجارة والآجر وسقفه مقبي ولنبوليون فيهِ غرفتان طول كل منهما اربع عشرة قدماً وعرضها اثنتا عشرة قدماً ولكل منهما نافذتان . وكان نبوليون ينام في احدى الغرفتين على السرير العسكري الذي اعتاد ان ينام عليهِ في ساحات القتال . وكان يغطيهِ بالستائر التي كانت معهُ في موقعة مارنجو واسترلتز وهي حريرية خضراء اللون . وكان في غرفة نومهِ مكتب (ديوان) يجلس عليهِ سواد يومهِ . والى جانبهِ آنية لغسل وجههِ ويديهِ مصنوعة من الفضة الخالصة وقد نقش عليها الحرف الاول من اسمهِ . وفي تلك الغرفة ايضاً ساعة فريدريك الاكبر

(وقد اخذها نابوليون من بوتسدام) وصورة صغيرة لجوزيفين مطلقته واخرى لماري لويز زوجه وثالثة — وهي اعز ما كان عنده — صورة « النسر الصغير » — اي ابن نابوليون من ماري لويز الذي كان البرلس مترنيخ قد اقامه شبه اسير بقصر شونبرن

اما الغرفة الثانية فكان فيها منضدة للكتابة وسرير آخر وبضعة كتب موضوعة على الرفوف

وكان نابوليون يقضي معظم اوقاته في هاتين الغرفتين فيطالع الكتب او يملي على كاتم اسراره ما يريد تدوينه . وكان يتنقل بين الغرفتين متضجراً متأففاً وتخطر فيهما جيئة وذهاباً وهو لابس بزته او قميصه وزيق القميص منفرج في مقدمة عنقه وعلى رأسه منديل احمر . فاذا ما حان وقت العشاء لبس بزته وجلس الى الخوان فيقدم اليه الندل الطعام في قصاع من الذهب والفضة والندل بثياب مطرزة وموشاة بالذهب . وكان ذلك المشهد هو البقية الباقية لنابوليون من ذكريات مجده وعظمته . ولكنهُ مشهد يشوبه شيء مما يدعو الى الضحك ونعني بهِ منظر الفيران تتسابق في الغرفة وحول الخوان فبعضها يبرز من شقوق الارض والآخر يتوارى في ثقوب جدرانها . وفي ذلك عبرة لرجل كانت قصور اوربا تضيق بصولته وجبروته فانتهت بهِ المقادير الى غرفتين في كوخ ما كان افقر جنوده ليرضى بالسكنى فيها . واعتاد ان يقضي سواد يومهِ متنقلاً بين الغرفتين وان يقف امام نافذة كل منهما يحدق مليًّا الى الافق كأنهُ يرى من ورائهِ اوربا التي اخضعها لسيفهِ . ثم يقابل بين امسهِ ويومهِ فيرى مجده قد تضاءل وعرشه قد انخفض . وفي هذا كتب شتورمر الى مترنيخ بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٨١٦ يقول :

« يكاد عقله يفقد توازنه . وكثيراً ما تثور حدته . . . على ان سحنته على [illegible] يكون وتدل حالتهُ على انهُ سيعيش طويلاً . ولا يستطيع احد ان يسبر غور نفسه ليعلم هل هو مستسلم الى الاقدار ام لا يزال يتعلل بالآمال . ويقال انه يعتمد على حزب المعارضة في انجلترا ويرجو ان يتمكن بفضل ذلك الحزب من مغادرة هذه الجزيرة . وهو لا يزال يحتج على نفيه ويعتبر نفسه امبراطوراً حتى في منفاه . ويقدم اليه برتران وموتولون ولاكاز وجورجو وجميع رجال حشمهِ واجب الاحترام كما كانوا يفعلون قديماً . ولا يردُّ الغرباء الذين يطلبون مقابلته الا انهُ لا يقيم مأدب ولا سهرات ولا يجاوز المنطقة المعينة له . . . ومما يثير غضبه ان ضابطاً انجليزيًّا يتبعهُ اينما سار . وهو يسعى دائماً لاجتناب رجال الحرس اذا خرج للنزهة . وقد نظم معيشته بحيث ينهض من سريره عند ما ينتصف النهار فيتناول طعام الفطور . وفي الساعة الرابعة يقابل الذين يقصدون اليه وبعد ذلك يخرج للنزهة ماشياً او راكباً مركبة تجرها ستة من الحياد . وقلما يخرج راكباً جواداً . وفي الساعة

الثامنة يتناول عشاءه ولا يقضي امام الحوان سوى ثلاثة ارباع الساعة . ثم يلعب الورق ويعدها يأوي الى سريره . الا انهُ ينهض في الليل مراراً ليشتغل . وهو منهمك الآن في تدوين تاريخ حياته وفي تعلم اللغة الانجليزية . وحديثه لا يخلو من الفكاهة لمن يدرك معانيه على انهُ قلما يحادث غير الفرنسويين ويندر ان يقابل الانجليز » اه

٤ — جو الدسائس في الجزيرة

ولا يخفى ان نبوليون نفي في المرة الاولى الى جزيرة « البا » حيث اقام مدة وهو محاط بجميع مجالي مجده وعظمته . اما في جزيرة القديسة هيلانة فقد كان شبه سجين عسكري وكانت الحكومة البريطانية قد امرت السر هدسن لو (حاكم الجزيرة) بان لا يعتبره سوى قائد وان يخاطبهُ باسم « الجنرال نبوليون بونابرت » وكان نبوليون يعترض على تلك المعاملة بحجة انهُ هو الذي سلّم نفسه في روشفور فهو بمقتضى القانون الدولي لم يفقد لقب الامبراطور ويعتبر نفسه ضيف الحكومة البريطانية لا اسيرها . هذا كان وجه الخلاف بينهُ وبين الحكومة البريطانية وهذه هي المعركة الاخيرة التي خاض غمارها ذلك الجبار الذي كان العالم كله يرتعد عند ذكر اسمه . وكان وهو في منفاه قد ملّ الوحدة واشتاق الى رفاق يؤانسونهُ ويذكرونهُ بمجد العالم الذي اعتزله . وكان في وسعه ان يداوي سآمته لو انهُ اذن للمندوبي الدول المتحالفة ان يقابلوه من وقت الى آخر ويخففوا عنهُ وطأة النفي الا انهُ ان ذلك لكي لا تكون مقابلته لاولئك المندوبين بمنزلة اعتراف منهُ بسجنه . وكانت نتيجة ذلك انهُ في خلال الستة الاعوام التي قضاها في الجزيرة لم ير احد من المندوبين وجهه سوى « مونشنو » مندوب فرنسا وقد رآه وهو جثة هامدة اي في يوم وفاته ! . . .

وكانت القطيعة شديدة بين نبوليون والسر هدسن لو . وفي الواقع ان نبوليون توعد باطلاق النار على كل ضابط انجليزي يجرؤ على الدخول عليه . وكان قد امر حاجبهُ برتران بان يرد الى السر هدسن لو كل رسالة يبعثها هذا اليه ولا يعنونها باسم « الامبراطور نبوليون بونابرت » . ولذلك اشتد الخصام بينهُ وبين حاكم الجزيرة . واظهر الاخير كثيراً من اللؤم واستفز غضب برتران الحاجب حتى طلبهُ هذا الى النزال ولكن نبوليون منعهُ من ذلك . ولما توفي كان اول ما خطر ببال برتران ان يطلب السر هدسن لو الى النزال مرة اخرى ولكنهُ لسبب ما لم يفعل . وكانت جميع تلك الانباء تتسرب الى اوربا بطريقة سرية وقد اشتدت حملات المعارضين في انجلترا نفسها على السر هدسن لو فكانت تلك الحملات تزيد في سخط الرجل وتستفزه الى البحث عن كيفية تسرب الاخبار الى الخارج . وذكر

« مونشنو » مندوب فرنسا في احدى رسائله أن مهمة السر هدسن لو ورفاقه كانت حراسة السجين والكشف عن كل مؤامرة ومنع كل تخاطب مع اوربا

وفي الواقع ان جميع الاشخاص الذين قذفت بهم الاقدار الى تلك الجزيرة كانوا يشعرون بشدة وطأة السآمة حتى أن جورجو كان في خلال الاشهر الاخيرة التي قضاها في الجزيرة يبكي لأتفه الاسباب . وكتب بالمان المندوب الروسي يقول : « اني قد عجزت عن تعويد جسمي جو هذه الجزيرة، وقد توترت اعصابي وساءت صحتي بسبب الاحوال الجوية »

ولا ريب ان السر هدسن لو كان مجرداً من مقتضيات الحكمة والسياسة وكان يسيء الظن حتى في اصدقائه . ولم يكن يجد من يعطف عليه او يوافق على سياسته . وزادت سياسته الحرقاء . في مشاق الاقامة بالجزيرة التي اجمع المؤرخون والكتاب على شدة رداءتها واذا اضفنا اليها السآمة علمنا ما كان يعانيه نبوليون وجميع الذين كانوا يقيمون بتلك الجزيرة

ومما يدل على توتر الاعصاب في تلك الايام — ليس في جزيرة القديسة هيلانة فقط بل في أوربا ايضاً — حادث تافه في حد ذاته زاد في قلق رجال السياسة في اوربا وازعجهم وهذا الحادث لم يذكر في شيء من كتب التاريخ ولكنه يلقي نوراً على جو الدسائس الذي كان منتشراً على جزيرة القديسة هيلانة

وتفصيل الخبر كما يأتي : — في ١٩ يونيو ١٨١٦ وصل الى جزيرة القديسة هيلانة البارون شتورمر تقله السفينة الحربية « اورتوس » ووصل معه فيليب فيللي احد علماء النبات النمسويين ومن المقربين الى آل قصر شونبرن بفينا . وكان غرضه من زيارة الجزيرة جمع ما فيها من نباتات نادرة لنقلها الى حديقة قصر شونبرن . وفي اليوم التالي تمشى فيليب فيللي المذكور مع هنري بورتيوس البستاني المعين من قبل الحكومة لتلك الجزيرة . وكان خدام نبوليون يزورون هذا البستاني من وقت الى آخر بصحبة جندي بريطاني من رجال حرس لونجوود . وفي اثناء المشاء قال فيللي لاحد الضيوف ان لديه اخباراً يريد ان يطلع مرشان (رئيس خدم نبوليون) عليها . وكان مرشان هذا من اخلص خدام نبوليون واوفاهم عهداً . وله رفيق يخدم الامبراطور اذا جلس الى المائدة واسمه تشبرياني وتشبرياني هذا صديق حميم طاهي البارون شتورمر الذي وصل الى الجزيرة مع فيليب فيللي . وفي ذات يوم تلقى تشبرياني رسالة من صديقه الطاهي وفيها خصلة من الشعر . وكان فيليب فيللي نفسه هو الذي جاء بتلك الرسالة من فينا معتقداً انها من ام مرشان التي كانت في خدمة الدوق دي ريشتاد (ابن نبوليون وعمره يومئذ خمس سنوات) وان خصلة الشعر التي في الرسالة هي من شعر ام مرشان . واقسم فيللي انه ما كان يدري ان الخصلة هي من شعر ابن نبوليون وان ام مرشان

ارسلتها على رجاء ان تصل الى يد الامبراطور نفسه

وعلى كل فان خبر الرسالة ذاع واتصل بسامع السر هدسن لو . فغضب غضباً شديداً وكتب الى شتورمر يقول : « ليس في العالم من يحسد اباً على حصوله على خصلة من شعر ولده . وما كانت الحكومة البريطانية تفكر في منع وصول تلك الخصلة الى نبوليون . ولكن الطريقة التي بها سخر الاستاذ فيلي لنقلها تدعو الى الانتقاد وهي التي جعلت للمسألة شأناً ما كان ينبغي ان يكون لها »

وهذه الحادثة على تفاهتها هي خير ما يشف عن الدسائس التي كانت تحاك في تلك الجزيرة . وبعد مرور خمسة اشهر أصبحت واقعة سياسية لم يكن بد من ابلاغها حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا والنمسا وروسيا بواسطة مندوبيها . وكانت سبباً في استدعاء البارون شتورمر فانهُ كتب الى السر هدسن لو يرجو منهُ اتخاذ ما يجب من الاحتياط لمنع تسرب الاخبار والاشاعات بشأن خصلة الشعر لكي لا يتناء الامبراطور فرنسوا الاول (حمو نبوليون وأبو اعدائه) الا ان السر هدسن لو اوعز الى الحكومة البريطانية بان تطلب من مترنيخ أن يستدعي البارون شتورمر لانهُ لم يكن اهلاً للمهمة التي عهد بها اليهِ . فلم يسع مترنيخ الا ان يجيب طلب بريطانيا العظمى . وعليهِ غادر البارون شتورمر جزيرة القديسة هيلانة في شهر يوليو سنة ١٨١٨ وكان قد قضى بضعة الاشهر الاخيرة فيها وهو يعاني وطأة نوبات حمّيرية بلغت مبلغاً من الشدة كان يضطر معها بضعة رجال الى القبض عليهِ عند حصول كل نوبة ليمنعوه من الهياج والحركة ثم يعطونهُ قليلاً من الافيون لتهدئة اعصابهِ

ولم يعين مترنيخ بعد ذلك مندوباً ليمثل حكومة النمسا في جزيرة القديسة هيلانة وانما اتفق مع فرنسا على ان يقوم الماركز دي مونشنو (مندوب فرنسا) بمهمة ذلك المندوب

اما السر هدسن لو فكان مضطرًّا الى استعمال الشدة في معاملة نبوليون لان مهمته كانت تقضي عليهِ بذلك فضلاً عن ان عوامل مختلفة كانت تستفز فيهِ روح الغضب والقسوة فقد كتب اليهِ في ١٧ اكتوبر سنة ١٨١٧ صديق لهُ من قادة الجيش النمسوي (الكونت جانزنو) رسالة جاء فيها ما يأتي : —

« واذا تساهلتم في معاملتكم امكر نذلٍ ظهر في العالم او عاملتموه بالشفقة فتحتموه بضعة امتيازات كان ذلك ختام سلام اوربا فتتعرض الشعوب الآمنة للمخاوف القديمة »

ومن الجهة الاخرى كانت آمال الحزب البونابرتي في اوربا متجهة الى شخص الامبراطور المنفي. ومع شدة المراقبة التي كان السر هدسن لو قد وضعها لمنع كل اتصال بين نبوليون والعالم الاوربي استطاع اتباعهُ ان يتصلوا سرًّا بأنصارهم في اوربا حتى كتب

الماركيز دي مونشنو الى مترنيخ رسالة بتاريخ ١١ سبتمبر سنة ١٨١٩ جاء فيها ما يأتي : —

« منذ بضعة ايام كان احد الضباط في هذه الجزيرة على وشك السفر باجازة فألح عليه بعض رجال نبوليون ان يحمل لهم الى البريد رسالة سرية ووعدوا ان يكافئوه على ذلك بستمائة جنيه الا انهُ رفض ذلك باباء .فترون اذن ان انصار نبوليون لا يعوزهم المال .وقد اعترفوا لي بأنهم لا يعتقدون ان في العالم قوة تستطيع منعهم من تبادل الرسائل مع انصارهم في اوربا فان من كان كيدهم على عشرين مليوناً من الجنيهات لا يعدم وسيلة لتبادل الرسائل »

٥ — مم كان نبوليون يشكو ؟

وكانت الحكومة البريطانية قد عينت لنبوليون ولحاشيته المؤلفة من واحد وخمسين رجلاً مبلغ ثمانية آلاف جنيه في السنة . وفي الواقع ان الحاشية كانت مؤلفة من مائة رجل منهم خمسون عاملاً صينيًّا . فكان المبلغ المعين ضئيلاً جدًّا لا يكفي في مثل تلك الجزيرة القاحلة حيث الحماية كبيرة وموارد الغذاء شحيحة .وكانت جزيرة القديسة هيلانة في ذلك الزمن اشد بلاد العالم غلاء . فالبقول فيها قليلة والماشية يؤتى بها من البرازيل فتهزل ويذهب لحمها قبل ان تصل . وجيوش الفئران والجرذان لا تبقي على شيء من الطعام او المؤونة . والفاكهة لا اثر لها . وكثيراً ما كانت المؤونة وأصناف الغذاء تفسد بسبب حرارة الجوّ اللافحة فتطرح بعيد وصولها

وكان نبوليون قليل الأكل لا يتناول الا القهوة في الصباح على ان يكون صنف من اصناف طعام الغداء ساخناً . اما سائر رجال حاشيته فكانوا يشعرون بقلة الغذاء ويتذمرون من الجوع . وقد بدأ الشحوب على وجوه الكثيرين منهم وظهرت عليهم آثار سوء التغذية حتى امر نبوليون مرة بأن يباع جانب من آنيته الفضية ليشترى بها طعام لهم

وكان الوقود ايضاً نادراً في الجزيرة حتى امر نبوليون بتحطيم سريره واستعماله وقوداً. على ان ما كان نبوليون يفعله من هذا القبيل انما كان لاستفزاز العواطف واثارة سخط العالم على آسريه. فقد كان المال متوافراً لديه سواء في الجزيرة ام في باريس يستطيع ان يشتري به ما يشتريه بثمن سريره او آنيته الفضية . وفي الواقع ان مسلكه هذا كان مظهراً من مظاهر الصراع بينه وبين الحكومة البريطانية — ذلك الصراع الذي كانت اوربا كلها قد وقفت تشاهده عن بعد . وكان بعض النصر في جانبه فان المعاش المعين له زيد بايماز السر « هدسن لو » الى اثني عشر الف جنيه في السنة

وكانت صحة نبوليون قبل ذلك على أحسن ما يكون. ولا شك ان قواه الجسدية كانت

فوق المألوف فقد قضى عشرين سنة يشتغل كل يوم نحو ست عشرة ساعة وقلما ينام سوى ثلاث ساعات من كل اربع وعشرين ساعة . اما في منفاه فلم ير عليه بعض الزمن حتى ظهرت فيه آثار نحو الجزيرة الخرب . وقد كتب فون شتورمر الى مترنيخ بتاريخ ٣١ اكتوبر ١٨١٦ يقول : — « يكاد يكون من المؤكد ان نبوليون يعاني مبادىء داء الكبد فانهُ يشعر بآلام محرقة في جانبه الأيمن تمتد الى كتفه اليمنى وهي اعراض الداء المذكور الذي قد اصبح كثير الانتشار في هذه الجزيرة كما في جزائر الهند الشرقية ويموت به الكثيرون في عنفوان شبابهم . ويقول الاطباء ان نبوليون لا يلجأ اليهم الاَّ متى اصبحت آلامه لا تطاق . وهذا يجعل مهمتهم شاقة اذ لا يستطيعون متابعة الداء في جميع ادواره . ولا شك ان الرياضة في الخلاء من احسن وسائل العلاج والاطباء يحاولون اغراء نبوليون بركوب الخيل ولكنهُ لا يكترث لنصائحهم بل يستمر في طريقة معيشته . والغريب انهُ كلما دار الحديث على وجوب العناية بصحته اظهر عدم اكتراث عظيماً وقال : انهم يريدون ان يقتلوني فليفعلوا ما يريدون ! » . وكتب فون شتورمر الى مترنيخ بتاريخ ٣ مايو سنة ١٨١٨ ما يأتي :

« منذ لزم الدكتور اومارا سريره في لونجوود اصبح حاكم الجزيرة لا يعلم شيئاً عن صحة نبوليون ولذلك فليس لديه ما يبلغنا اياهُ من هذا القبيل . على اني علمت من مصادر اخرى ان صحة نبوليون قد ساءت . ويقول الامبراطور السابق (يقصد نبوليون) انهُ يكره الدكتور باكستر كرهاً شديداً ويفضل الموت على ان يدع طبيباً آخر خلاف الدكتور اومارا يعالجهُ . والدكتور اومارا هذا هو الشخص الوحيد الذي يستطيع حمل نبوليون على قبول العلاج بالزئبق لوقف سير داء الكبد . . .

« وقد مرت ثلاثة اسابيع لم يتناول نبوليون في خلالها شيئاً من الدواء . ويظهر ان رسائل شديدة اللهجة تبودلت في هذا الشأن بين حاكم الجزيرة والكونت برتران . . . وأكد لي مخبري أن نبوليون اضاف الى احدى الرسائل التي كتبها الكونت برتران الى السر توماس ريد (وكيل حاكم الجزيرة) حاشية بخط يده هذا نصها : ارجو ان تطلعوا الامير جورج الرابع على سلوك قاتلي (يقصد السر هدسن لو حاكم الجزيرة) لكي يعاقبهُ فان لم يأمر بمعاقبته فاني اتهم الاسرة الحاكمة على انجلترا بالتواطؤ على قتلي »

(٦) — هل مات نبوليون مسموماً ؟

كان مندوبو الدول الثلاث — اي فون شتورمر النمسوي . وبالين الروسي . ومونشنو

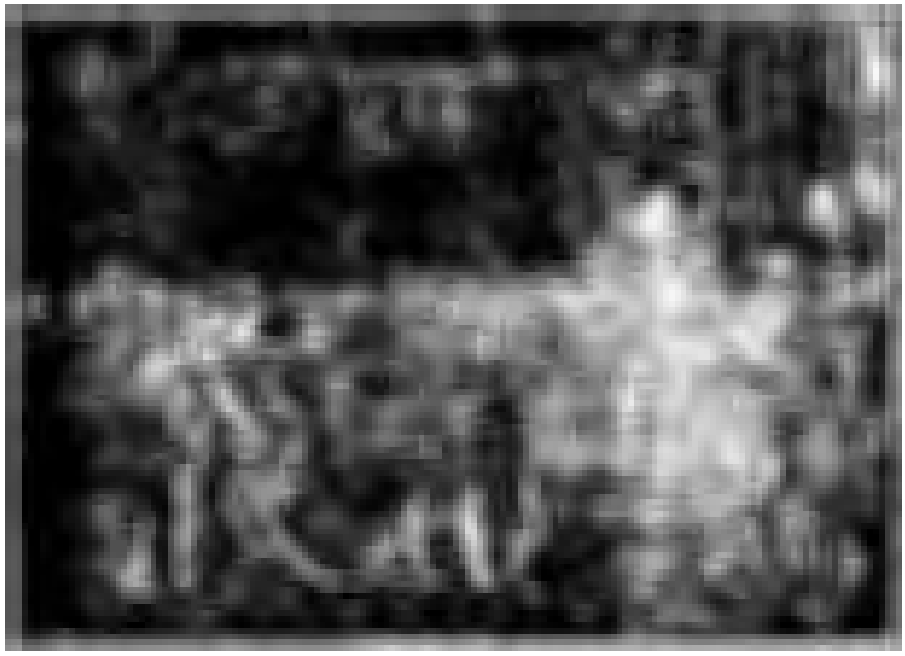

زفاف نبوليون الى ماري لويز — صورة قديمة

نبوليون وابنهُ — صورة قديمة

الفرنسوي — معينين من قبل دولهم لمعاونة السر هدسن لو في مراقبة نبوليون بونابرت ، وكانت مهمتهم مقصورة على الاستيثاق من بقاء نبوليون في ذلك المنفى السحيق وارسال التقارير المسهبة بشأنه الى حكوماتهم بواسطة سفينة البريد التي كانت تمر بجزيرة القديسة هيلانة من وقت الى آخر . وكانت تقاريرهم سرية لا تطلع عليها الا الحكومات صاحبات الشأن . وهي في الواقع مهمة جداً لكل من يريد ان يلم بتاريخ نبوليون في منفاه الماماً دقيقاً

***

اما تقارير مونتشو فتناقض الاعتقاد العام بشأن علة وفاة نبوليون وتفكر انهُ توفى بسرطان المعدة فضلا عن انها تحتوي على احاديث كثيرة معزوة الى السر هدسن لو والى الدكتور اومارا وجميعها مما لم يسبق نشره وتدل على ان اشاعة كانت قد راجت في جزيرة القديسة هيلانة مؤداها ان هنالك مساعي لتسميم نبوليون . ومهما يكن نصيب تلك الاشاعات من الصحة فالمعروف الآن ان المرض الذي توفى به نبوليون لم يكن من الامراض الاعتيادية . ومن دواعي الاسف ان تشريح الجثة بعد الوفاة تمَّ بسرعة فائقة وان الجثة وضعت في التابوت بلا تحنيط ودفنت في الجزيرة كما شهد بذلك صديق السر هدسن لو نفسه كان يكره نبوليون

تكاد تقارير مونتشو تعادل تلك السجلات التي عهد الى الدكتور ارنست في فحصها وآخر تلك التقارير هو بتاريخ ١٩ مايو سنة ١٨٢١ وقد كتبهُ مونتشو بعيد وفاة نبوليون ولعله اهم التقارير كلها لانهُ يشير الى « وصية » قيل ان نبوليون كتبها واودعها في اوربا في حرز امين . ويظهر ان مترنيخ بذل يومئذ سعي الجبارة للوقوف على تلك الوصية فلم يفلح . وسبب اهتمام مترنيخ بها واضح اذ لا بدَّ ان الوصية كانت تتناول الاميرة ماري لويز زوج نبوليون وابنها الصغير الملقب بالنسر

وليس في سجلات التاريخ ما يشبهُ اللؤم الذي تكشفُ عنهُ المساعي التي بذلها يومئذ اعداء نبوليون . وقد كانت ماري لويز تتمتع بحب زوجها الامبراطور نبوليون الذي اخلص لها في كل شيء مدة خمس سنوات متوالية . وكان في امكانها ان تنقذه لو شاءت لأن الامبراطور فرانسوى الاول ملك النمسا كان ابا وكان من اقوى ملوك عصره . ولكنها بدلاً من ان تساعد زوجها وتخلص لهُ انقلبت عليهِ وتخلت عنهُ وعن ابنها منهُ وذهبت الى ايطاليا لتقيم مع خليلها « نيبرج » . ومع ان اخبار خيانتها وتهتكها بلغت مسامع نبوليون الا انهُ ظل يحبها الى الآخر واوصى بها خيراً حتى في وصيته